نصوص
من الحديث النبوى

١ - الحرية المقيّدة:

قال رسول الله - ﷺ -:

"إن قومًا ركبوا فى سفينة فاقتسموا[١]، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكانى أصنع فيه ما شئت. فإن أخذوا على يده[٢]؛ نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا".

"أخرجه البخارى"

التحليل:

١ - النظرة الأولية فى هذا الحديث، تريك قومًا راكبين سفينة، قسموها فيما بينهم، فصار لكل منهم موضعه الخاص به، وحسب رجل منهم أنه حر يصنع بموضعه ما يريد، فأخذ ينقر فى موضعه بفأس، يريد أن يحدث ثقبًا فيه لعله يشرب، أو لئلا يؤذى غيره بالمرور فى موضعه ـ كما تفيده رواية أخرى للحديث ـ أو لمجرد الرغبة فى إثبات حريته فى ملكيته، وكما تفيده هذه الرواية، ونظر القوم إليه وهو ينقر، وسألوه عما يصنع، فأجابهم أنه مكانى وأنا حر أصنع به ما أشاء. ويعقب ﷺ على موقف القوم من صاحبهم قائلا: إن منعوه -

(١) قسموا أجزاء السفينة فيما بينهم.

(٢) منعوه من النقر الذى يثقب السفينة.

ولو بالقوة – أنجاهم عملهم وأنجاه، وإن تركوه يثقب السفينة، أهلكه عملهم وأهلكهم.

٢- والنظرة الثانية – قليلا – تضع هذا الحديث بين القصص الرّمزىّ الذى لا يهدف إلى مدلولاته الظاهرة وحسب، وإنما يتعداها إلى أفكار أُخَر أعمق منها، بيد أنها تنطلق منه إلى معان أوسع مدىً. والأفكار التى يرمز إليها الحديث هى العلاقات المرتبطة بالفرد والجماعة فى المجتمعات الإنسانية، حيث إن لكل فرد منافعه الذاتية، وممتلكاته الخاصة، ولا ريب أن وجود الأنانية لدى الأفراد تجعلهم يقدمون مصالحهم الخاصة على المصلحة العامة، والحديث يومئ إلى أن الفرد غير مطلق الحرية، وإنما حريته مرتبطة بمصلحة من حواليه من الأفراد الآخرين الذين يعيشون معه فى البيئة نفسها، فلو أنه ترك يتصرف حسبما يشاء ربما أضر بنفسه، وألحق الضرر بالآخرين.. فللمجتمع والرأى العام حق الإشراف على تصرفات الأفراد، حتى لا يلحق الضرر المجتمع بأسره، ومن حقهم آنذاك الحجر على تصرفاته ومنعه بالقوة حينما يتأكدون أن تصرفات الفرد ستلحق ضرراً بالمصلحة العامة، وما يعيشه المسلمون فى هذا العصر، وخاصة المصريين من فردية الجميع، والأنانية التى أصبحت سمة غالبة، لدليل قوى على صحة ما يرجوه منا حديث الرسول – عليه الصلاة والسلام – آنف الذكر. وقد جاءت صياغة الحديث الشريف فى شكل قصصى رمزى. وهذا الذى جعل الحديث يدخل ضمن "الفن الأدبى"، وأقوى فى الإيحاء الشعورى وأيسر فى الإقناع العقلى من الصوغ التجريدى الذى يبسط الأفكار فى صورها العقلية الجافة. فالقصص الرمزى فى ذاته تمثيل، واختصار للعموميات، والتمثيل يقرب الفكرة من العقل، كما أن الاختصار يدنيها من التصور، وهو أيضاً إيحاء بالمدلول من غير تصريح كما هو تلويح بالفكر من غير إجلاء، ومع دنو التصور وقرب التعقل يشع فى النفس جو من الإثارة العاطفية يجعلها تتمثل الفكرة، وتستريح إليها النفس، وتتعقل الصورة وتقتنع بها. وفى التعبيرات الجزئية ألوان من الإيحاء يزيد من الإثارة نحو الفكرة، فمشاهدتك

القوم فى سفينة يجعلك تشعر بمعترك الحياة، وأنها بحر لجىّ تتلاطم فيه الأمواج، وأن التعاون والترابط والوحدة هى المنجاة من خضمّ الحياة الزاخرة بالمشكلات، كما أن انحصار حياة القوم فى سفينة يوحى بإمكانية الرؤية والإحساس بالخطر، فلا يصح أن يؤخذ القوم على غرّة. كما أن الرّد الذى جاء على لسان الرجل الذى أراد أن يخرق فى السفينة خرقاً حتى لا يؤذى غيره أثناء مروره بالماء من أعلى إلى أسفل قائلاً: "هو مكانى أصنع فيه ما شئت" يضع يديك على لون من ألوان الزيف فى المنطق، وهراء الحديث وتعمية الحقائق، وإلباس الحق ثوب الباطل، مما يتذرع به الأنانيون الذين لا هم لهم إلا مصلحتهم الخاصة، كما أن قوله – عليه الصلاة والسلام – "أخذوا على يده" يلفتك إلى ضرورة منع التصرف الذى يلحق الضرر بالمجموع، ولو أدى ذلك إلى منعه بالقوة لدفع الضرر العام.

وقد بدأ الحديث بجملة مؤكدة، مع أن الخبر "ابتدائى". والخبر الابتدائى لا يحتاج إلى توكيد، وإنما الذى يحتاج إلى توكيد من أنواع الخبر "الطلبى، والإنكارى" بمؤكد أو أكثر من مؤكد وذلك للإيحاء بوثاقة الخبر فى مدلوله الرمزى، وإمكانية حدوثه، وسبق المسند إليه فى الجملة منكراً، للإشعار بشيوع الحدث وعدم اختصاصه بزمان أو مكان، فقد يحدث هذا فى أى زمان وفى أى مكان. وسيقت عبارات الحديث فى أسلوب خبرى، والاستفهام الوارد فى الحديث ورد داخلاً فى نطاق الخبر، لأنه مقول القول، وهذا يعين على السرَّد القصصى، كما أن الاستفهام الوارد فيه لون من ألوان الإثارة ليتَّقد الذّهن ويكون فى يقظة والحديث يتآزر بصياغته وإيحاءاته التعبيرية، ورمزيته على إبداء الفكرة والإثارة نحوها وحسن استيعابها.

٢ - الطُّهور شطر الإيمان:

روى الإمام مسلم فى صحيحة بسنده عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله – ﷺ:- "الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملآن، أو تملأ ما بين السماء والأرض،

والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها".

التَحليل:

الطُهور بضم الطاء المراد به "الفعل" الذى هو المصدر – أى: التطَّهر. أما إذا أريد به الماء الذى يتطهّر به الإنسان، فيكون "الطَّهُور" بفتح الطاء. يقول سبحانه وتعالى "وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً" وأمثال ذلك "السحور والفطور والبخور والوقود" قال سبحانه: "وقودها الناس والحجارة" ويقول عز من قائل "وسقاهم ربهم شراباً طهوراً".

شطر: يفتح الشين وسكون الطاء هو "النصف" تقول "شطر الشئ أى "نصفه" وشاطره الشئ أى "ناصفه".

الإيمان: المقصود به: الإيمان الكامل من اعتقاد وقول وعمل.

الصلاة نور يمكن أن يكون ذلك من باب المبالغة على أن الصلاة هى النور بعينه، أو أنها على حذف مضاف والتقدير "ذات نور" أو أنها بمعنى "فاعل"، أى منيرة. يغدو من الغدو وهو الخروج فى أول النهار وهو ضد الرواح. فبائع نفسه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره "هو بائع نفسه" موبقها: مهلكها، وهو اسم فاعل مأخوذ من "أوبقه" بمعنى أهلكه ومثله وبق يبق كوعد يعد، والموبق: مفعل منه كالموعد من وعد – يقول سبحانه: "وجعلنا بينهم موبقاً" وتقول "أوبقه" يعنى أهلكه، واسم الفاعل منه "موبق". وفى هذا الحديث يرشدنا رسول الله – ﷺ – إلى أن التطهر نصف الدين، لأن الدين ينحصر فى أمرين أولهما فعل ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وثانيهما: اجتناب ما نهى الله عنه، وكلاهما نصف الدين، ومن ثمّ فقد ابتدأ به النبى – ﷺ – مقتصراً عليه، حيث إن الإسلام يطالب معتنقيه بالطهارة الظاهرة والباطنة، وما طولب المسلم بالطهارة الظاهرة إلا من أجل أن تكون الطهارة الظاهرة وسيلة إلى الطهارة الباطنة، حتى يكون المسلم نظيفاً ونقياً وطاهراً وباطناً، ويومذاك يصبح مسلماً نقياً مخلصاً.

الحديث الثالث

عن الشرَّيد بن سويد الثقفى قال: قلت يا رسول الله إن أمى أوصت أن أعتق عنها رقبة مؤمنة وعندى جارية سوداء نوبية(*)، أفأعتقها: قال: ادعها فدعوتها، فجاءت فقال: من ربك؟ قالت: الله. قال فمن أنا؟ قالت: رسول الله، قال أعتقها، فإنها مؤمنة.

أخرجه أبو داود والنسائى:

التّحليل:

يروى لنا هذا الحديث الصحابى "الشريد بن سويد الثقفى" فيقول: قلت لرسول الله – عليه الصلاة والسلام – إن أمِىَ أوصت أن أعتق عنها رقبة ولدى جارية نوبية سوداء، فهل أعتقها؟ تنفيذاً لوصية أمى، وهو بذلك يومئ إلى المشورة وأخذ الرأى فى معضلات الأمور وهو مبدأ إسلامى. يقول تعالى: "وشاورهم فى الأمر" فأمره النبى عليه الصلاة والسلام باستدعاء الجارية، فقال لها: مَنْ ربك؟، فقالت: الجارية: ربى الله، قال لها: فمن أنا؟ فأجابته قائلة: إنك رسول الله. عندئذ، أمره النبى ﷺ بعتقها، ولاستشاره الرسول – عليه الصلاة والسلام – إيحاءات عدة وهى: أن حقيقة الإيمان لا تكتفى بظاهر الأمر، لذلك أصر الصحابى، الجليل – رضى الله عنه – على سؤال النبى – عليه الصلاة والسلام – ليتأكد من حقيقة إيمان الجارية، فحكم النبى بأنها مؤمنة، وهى إشارة وإلماح إلى الاكتفاء بالظاهر والله يتولى السرائر، وأننا لم نؤمر بالتنقيب عن قلوب الناس، ولا يعلم بواطن الأمور إلا الله سبحانه. كما أن الحديث يدل دلالة حاسمة على أنه من الواجب على المسلم الوقوف عند حد الظاهر فى مثل هذه الأمور. كما أن اسم الإيمان يراد منه مجرد الاعتقاد، وكان الغرض من السؤال أيضاً الوقوف على القدر الذى يتحقق به تنفيذ وصية أمه،

(*) النوبة: هى فى شمال بلاد السُودان، وجنوب صعيد مصر. وأهلها مشهود لهم بالخدمة والنشاط والقوة والأمانة، وفى معجم البلدان لياقوت الحموى أن الرسول عليه السلام مدحهم بقوله [خير سبيكم النّوبة].

والسرّ فى ذلك أنهم كانوا يرون فى إيمان الإماء نقصاً، ولذلك كانوا لا ينكحوهنّ أو أن السر نصارى مثل أهل الحبشة، فأراد الصحابى أن يقطع الشك باليقين وذلك بسؤاله – عليه الصلاة والسلام –، وقد اكتفى منها عليه الصلاة والسلام – بإجابتها الموجزة فى التوحيد، قولها "ربى الله"، وهو مجرد اعتراف، ولم يسألها الرسول – عليه الصلاة والسلام – عن منشأ اعتقادها. وبعد سؤال النبى – ﷺ – لها، نراه يقول للصحابى الجليل – رضى الله عنه –: أعتقها، فإنها مؤمنة.

من خلق المسلم

عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فَرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"(*).

الدراسة والتحليل:

فى هذا الحديث النبوى الشريف يوضح لنا عليه السلام حرص الإسلام على توثيق الروابط الأخوية بين المسلمين، ودعم ما بينهم من وشائج وأمشاج، ليقوم المجتمع الإسلامى على قواعد متينة، ويرتفع على دعائم قوية يحيط بها الحبّ من كل المناحى، ويشملها التعاون والود من شتى النّواحى. والمتمعن فى الحديث يرى صورة الأخوّة الإسلامية متجلّية واضحة عظيمة رائعة حيث يجعل الإسلام صلة المسلم بالمسلم كالأخ الشقيق فى التعامل والمحبة والود والحرص على مصلحته، وعلى ضوء هذه المعانى لا يظلمه ولا يحقره ولا يؤذيه حساً أو معنىً، أو أن يتركه لأعدائه يسيمونه سوء العذاب، وعلى أساس ذلك التعاون والإخاء يَعِدُهُمُ الرسول – عليه الصلاة والسلام- بالثواب الجزيل الذى يلقونه من الله عز وجَلَ، فكل مسلم يسعى فى حاجة أخيه المسلم، أو يفرج كربه، أو يستر عليه، فإن الله سبحانه يجزيه الثواب العظيم يوم القيامة.

(*) المسلم: الملتزم بكل ما جاء به الإسلام. لا يظلمه: لا يعتدى على حق من حقوقه – لا يسلمه: لا يدعه للآخرين بل يدافع عنه.
الكربة: الشدة.

وفى الحديث دعوة إلى الأخوة فى الله، لأن رابطة الدين من أقوى الروابط، حيث إنها تستند وتقبس معانيها وأسسها من القرآن والسنة، كما أن فى الحديث دعوة إلى قضاء حوائج الناس، وتفريج كربهم، وستر عوراتهم كما أن فيه وعداً من الله بالثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة للذين يقدمون الخير لإخوانهم المسلمين. وتتجلى فى الحديث أيضاً بلاغة رسول الله – عليه الصلاة والسلام – حيث ينزل المسلم منزلة الأخ الشقيق، وهى صورة رائعة أخّاذة، تطمئن إليها النفس ويستريح الفؤاد لهذا المعنى الجليل، وفى ذلك دعوة المسلم إلى الامتناع عن الأذى، والسّعى فى حاجة أخيه المسلم. والنبى - ﷺ - أعرف الناس بالنفوس البشرية ومكان الحافز منها والتشجيع، حيث يدفعها ذلك إلى العمل ويحفزها إلى فعل الخيرات، وخاصة أن المؤمن دائماً يسعى ويرغب فيما عند الله عز وجل من الثواب والنعم. ويعَدّ الحديث لوناً من ألوان النثر الإسلامى الرائع، تجلّت فيه روعة العبارة، وجمال اللفظ ووضوح المعنى، وحسن التقسيم، كما أن فيه إيجازاً رائعاً، حيث جاءت المعانى الغزيرة فى كلمات موجزة. وهذه بلاغة رسول الله - ﷺ - الذى وصفه ربه سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1].

(١) سورة النجم الآية رقم [٣،٤].

وصية نافعة

عن أبى العباس عبد ا لله بن عباس – رضى الله عنهما – قال: "كنت خلف النبى – ﷺ – يوماً، فقال: يا غلام. إنى أعلمك كلمات ينفعك الله بِهِنَّ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك(*)، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام، وجَفَّت الصحف".

الدراسة والتلحيل:

كان النبى – عليه الصلاة والسلام – أشد ما يكون حرصاً على نفع المسلمين وعلى جلب الخير لهم. وفى هذا الحديث يهتبل يعنى: ينتهز الفرصة، فرصة قرب العباس منه، فيعلمه كلمات تنفعه فى الدنيا، وتجلب له الخير فى الآخرة وهى ليست خاصة به وحده، بل هى تعاليم وتوجيهات راشدة وقائدة لكل مسلم يعى هذه الكلمات، وينفذ تلك النصائح والتوجيهات، فهى تهدى إلى الخير، وتقود المسلم إلى الطريق المستقيم، فهى تبدأ بدعوته إلى حفظ الله ليحفظه. وحفظه لله يكون بأداء ما فرضه الله عليه، والنأى عما حرّمه، مع طاعته وتقواه، وعندئذ يحفظه الله فى نفسه وأهله، وماله وولده، ودينه ودنياه، ثم يوضّح له معانى العزّة والقوّة حيث إن المؤمن لا يسأل أحداً سوى الله، ولا يطأطئ رأسه لغير الله سبحانه، فإنك إن سألت

(*) تجاهك: فى مواجهتك لا يغيب عنك لحظة – استعنت: من الاستعانة وهى طلب المعونة – كتبه: قدره وأراده.

الناس غضبوا، وإن أعطوا منُّوا، وإذا سألت الله سبحانه رضى عنك وأعطاك دون مَنّ أو أذى". يقول النبى - ﷺ -: (من لم يسأل الله يغضب عليه، لَيسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع)، ثم يوجهه أن يطلب العون من الله وحده، فهو القادر على كل شئ، ويؤكد له أن الله هو القادر وأن عباده جميعاً عاجزون عن تقديم الضّرّ أو النفّع لأحد من الناس فالله وحده هو النّافع وهو الضّار وهو مالك الملك، وهو على كل شئ قدير ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

وقوله ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

كما يدعو الحديث إلى المحافظة على حدود الله، وتعاليم الدين الحنيف، وطلب العون من الله وحده (وإذا استعنت فاستعن بالله)، وألا يخشى أحداً إلا الله فهو وحده الذى يضر وينفع، وفى هذه الدعوة تربية للمؤمنين على الإباء والشمم، والعزة والكرامة والأنفة، ورفض الذل والضيم والاستكانة. وفى الحديث ما يدل على حرص رسول الله – عليه الصلاة والسلام – على تقديم الخير لأمته، وإسداء النّصح لهم وتوجيههم إلى الخير فى كل مناسبة تسمح بالنصيحة والتوجيه. ويستهل النبى عليه السلام حديثه بما يسترعى به سمع العباس، ويستثير كوامن الشوق فيه إلى ما يلقى إليه، منبهاً إياه إلى أنه سوف يعلمه كلمات ينفعه الله بها علماً وعملاً، وينفع الناس بها عظة وتعليماً، وذلك لبيان قيمة ما يلقى إليه، ودفعه إلى الحرص على الاستماع، طالباً منه العمل بما يستمع إليه، وحديث رسول الله – عليه الصلاة والسلام – وكلماته الواردة فيه من الدّرر العَوَالِى، والحِكَم الغَوَالِى، كما أن فى الحديث من الوصايا النافعة ما لو عمل بها المسلمون لَسَعِدُوا فى الدنُّيا والآخرة، ولو اتخذتها الأمة الإسلامية منهاجاً فى التربية لعزَّت وسَمَتْ، ووصلت إلى ما تتغيّاه من مجد ومكانة سامقة.

---

(١) سورة يونس الآية رقم: ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام الآية رقم: ١٧.

من شجاعة المؤمن

روى ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله - ﷺ - قال: لا يحقر أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول الله، كيف يحقِّرُ(*) أحدُنا نفسه؟ قال: يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه.. فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فِىّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياى كنت أحق أن تخشى".

الدراسة والتحليل:

إن من أروع القيم التى ربى الإسلام عليها أتباعه من المؤمنين الأتقياء، والمسلمين الأصفياء أن تكون لديهم الشجاعة فى الحق، وأوصاهم الإسلام أن يصدعوا بها فى وجه العتاة والظالمين، والجبابرة والطاغين مهما كلفتهم من ثمن، ولاقوا فى سبيلها من متاعب كثيرة، فلابد للّيل أن ينجلى، ويطلع الفجر الصّادق محطّماً الظّلام الدآمس بضيائه الوضآح. والشجاعة الأدبية تدفع المسلم إلى قول الحق وفعله، علماً بأن كلمة الحق مريرة المذاق، وثمنها فادح، ولكن ربحها أكبر، وثوابها أعظم حينما يقدم عليها المسلم فى جسارة لا تخشى اللوم، ومواجهة للباطل، غير هيابة لجبروته أو المجاهدة فى سبيل إقرار الحق دون نكوص أو تردد وهى مظهر من مظاهر اعتداد المسلم بذاته، واستقلاله فى سلوكه وفكره. كل ذلك يمنعه من مجاراة

(*) لا يحقر: لا يزدريها أو ينتقصها - مقال: أى قول واجب مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقول الحق.

- كذا وكذا: كناية عن الموقف الذى ينبغى أن يصدع المؤمن فيه بقول الحق - خشية الناس: أى خوفاً منهم.

- فإياى كنت أحق أن تخشى: يعنى أنت قد خشيت الناس والله أحق بالخشية.

العادات والأعراف والتقاليد، وتمنعه من الخضوع لمواريث البيئة وأعرافها، وهو فى مسيس الحاجة إلى جهاد نفسه حتى ينجح فى الجهر بالحقّ ولا يخشى فى الله لومة لائم. وقد امتدح القرآن الكريم هذا الصنف الذى يصل فى جهاده إلى هذه المرتبة فيقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وليس من الإيمان فى شئ أن يرى المسلم حرمات الله تنتهك وأوامره تُعطَّل، والفساد يستشرى ثم لا يقول بعد ذلك كلمة حق مرضاة لله ورسوله خشية الناس، والله أحق بالخشية. يقول سبحانه: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[2].

كما أنه ليس من الشجاعة الأدبية أن يغضب المسلم ربه فى سبيل إرضاء الناس، كما يرشدنا الحديث إلى صورة من صور احتقار النّفس قد تغيب عن كثير من الناس لا يحسون بها ولا يدركونها، وذلك أن يرى المسلم منكراً ثم لا ينكره، أو معروفاً ثم لا يقوم به، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من واجبات المسلم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[3].

ويعد الحديث الشريف السّاكتُ عن الحق أنه محتقر لنفسه ثم ينهى عن ذلك، فيقول "لا يحقر أحدكم نفسه"، ثم يثير بذلك سؤالاً فيقولون لرسول الله – عليه الصلاة والسلام :- "كيف يُحَقِّرُ أحدُنا نفسه؟! فيجيبهم ﷺ (يرى أمر الله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه) ونرى الحديث الشريف يرد فيه أسلوب النهى لا يحقر" لتحذير المسلمين من هذه الصُّورة البشعة وأسلوب الاستفهام الحقيقى (كيف يحقر

---

(١) سورة المائدة آية رقم: ٥٤.

(٢) سورة الأحزاب آية رقم: ٣٧.

(٣) سورة آل عمران آية رقم: ١١٠.

أحدنا نفسه)، وذلك لطلب الإجابة لما يجهلون معرفته، وكذلك أسلوب الاستفهام الإنكارى فى قوله: (ما منعك أن تقول فِيَّ كذا وكذا، وذلك توبيخ للساكتين عن الحق، كما نرى أسلوب القصر فى قوله تعالى: "فإياى كنت أحق أن تخشى" وذلك ليفيد أن الخشية إنما تكون لله وحده سبحانه وتعالى.

١ - الجليس الصالح:

عن أبى موسى عن النبى - ﷺ - قال: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة".

٢ - مكارم الأخلاق:

قال رسول الله ﷺ "أوصانى ربى بتسع، أوصيكم بها: أوصانى بالإخلاص فى السّر والعلانية، والعدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمنى، وأعطى من حرمنى، وأصل من قطعنى، وأن يكون صمتى فكراً،ونطقى ذكراً، ونظرى عبرا".

٣ - المسلم أخو المسلم:

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا،ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله. والتقوى ها هنا. ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه".

٤ - وجوب الإيمان بالرسالة الخاتمة:

عن أبى هريرة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: "والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت، ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النَّار". رواه مسلم.

٥ - الأخوة فى الإسلام:

قال رسول الله - ﷺ:

"من كان عنده فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له".

قال أبو سعيد (راوى الحديث): "فذكر رسول الله - ﷺ - من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حقّ لأحد منّا فى فضل".

٦ - قوة المؤمن:

قال صلى الله عليه وسلم:

"المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف،وفى كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز وإن أصابك شئ فلا تقل: "لو كان كذا لكان كذا" ولكن قل: "قدر الله، وما شاء فعل"، فإن "لو" تفتح عمل الشيطان".

٧ - من صور الجهاد:

عن أنس – رضى الله عنه – قال: خرج النبى - ﷺ - إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة – ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم – فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع، قال: "اللهم إنَّ العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة"، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمَّدا على الجهاد ما بقينا أبدَاَ

"الخُطَب"

أدب النبى ﷺ وصحابته (رضى الله عنهم)

لقد انتظم كلامه - ﷺ - المعانى الأدبية المتباينة وتعرّض لجوانب الحياة بعبارات مؤثرة، وجعل تعبّر عن شعور رقيق، وذلك بضرب المثل حيناً، والتمثيل الرائع حيناً آخر، وبالمنهج القصصى حيناً، وبالحوار تارة أخرى، كما أنه عليه السلام كان يُؤْثِرُ السهولة حين يقتضى الأمر ذلك والجزالة حين يستدعيها المقام، ويبسط الكلام، فيصبح سلساً سهلاً، ويعمد إلى الإيجاز، فيصير من جوامع الكلم، وفى الوقت نفسه يكون معجزاً. ومثال ذلك.. اختياره - عليه الصلاة والسلام - الاستعارة "القوارير للنساء"، حيث يقول - عليه الصلاة والسلام - : "رفقاً بالقوارير" طالباً الرفق فى معاملتهن، لأنهنَّ ذوات إحساس مرهف، وشعور رقيق يشبه الزجاج فى الرقة ونعومة الملمس، كما اشتمل كلامه - عليه الصلاة والسلام - على الجزالة والتأثير، مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - : "أمرنى ربى بتسع أوصيكم بها، أمرنى بالإخلاص فى السّر والعلن، والعدل فى الرّضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمنى، وأعطى من حرمنى، وأصل من قطعنى، وأن يكون صمتى فكراً، ونطقى ذكرا، ونظرى عبراً" كما تجلت فى كلماته وأدبه عليه السلام العاطفة الرقيقة، وعبر عنها بكلام مؤثر بليغ، تجلى ذلك فى مقولته عن جبل "أحد" "هذا جبل يحبنا ونحبه، وهو على باب من أبواب الجنة، وفى رواية أخرى (هذه طابة وهذا جبل يحبنا ونحبه)[1].

---

(١) صحيح البخارى - كتَاب المغازى [غزوة تبوك].

أما عاطفة الرحمة فقد تجلت فى كلامه - ﷺ - حيث قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شئ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم، فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته، ويرح ذبيحته" (١). وقوله أيضاً: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء" (٢). كما أننا نرى كثرة التشبيهات الرائعة البليغة والتمثيل فى كلامه عليه السلام. وقد جاءت تشبيهاته وتمثيلاته - عليه الصلاة والسلام - معتمدة ومقبوسة من البيئة التى يعيش فيها الناس، ويضرب الأمثلة الحسية للأشياء المعنوية لقربها إلى الأفهام، وتتضح فى الأذهان. ومثال ذلك عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ - "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المؤمن، فحدثونى ما هى؟ فوقع الناس فى شجر البوادى، قال عبد الله بن عمر: ووقع فى نفسى أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: ما هو يا رسول الله قال: النخلة"(٣). وهناك نصوص أخرى للرسول - عليه الصلاة والسلام - تتصل بجوانب الحياة كلّها، وهى تُؤَدِّى عملها بأسلوب حسن مؤثر وقوى. كما نرى الجوانب التربوية فى كلامه ﷺ. وترى ذلك جلياً واضحاً فى خطبة "حجة الوداع" كما ترى أسلوب الوصف، والتوجيهات الإسلامية، وعاطفة التواضع والرجاء الذى نلمحه من دعائه يوم عرفات، حيث نجد الرجاء المخلص الذى يرجوه من الله عز وجل فى تواضع وخشوع، وهو عليه السلام أنموذج وأسوة وقدرة للأدب الإسلامى الإنسانى الرفيع.

وقد حذا حذوه، ونسج على منواله - عليه الصلاة والسلام - صحابته - رضوان الله عليهم أجمعين - حيث جاء أدبهم أدباً إسلامياً هادفاً، وإنسانياً نبيلا، يعالج القضايا الإنسانية والاجتماعية التى يعيشها الناس والمجتمع، نلمح ذلك من

---

(١) رواه مسلم [كتاب الذّبائح].

(٢) رواه أبو داود.

(٣) صحيح البخارى [كتاب العلم].

خلال النصوص التى جاءت على ألسنتهم رضى الله عنهم، وذلك فى التعبيرات عن الألم وحوادث الزمن، والقضاء، والوصف للحزن والسرور، وما إلى ذلك من الأغراض المتباينة بأسلوب رصين، ولفظ متين مملوء بالتشبيهات، والاستعارات، والكنايات، والتمثيل فى دقة ووضوح، وبلاغة ماً فوقها بلاغة، مع الالتزام بالمنهج الإسلامى.

خطب الرسول ﷺ
"فى حجة الوداع"

قال رسول الله - ﷺ - بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس: اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رِبَاً موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كُلُّه، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد،

أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: (إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله فيحلوا ما حرم الله) ويحرموا ما أحلّ الله، وإن الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور

عند الله اثنا عشراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم) ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذين بين جمادى وشعبان.

أما بعد،

أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهنّ عندكم عوان لايملكنّ لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلُّوا بعدى أبداً أمراً بيّنا، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم،وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لا مرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ فذكر لى أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله - ﷺ -: اللهم فاشهد[1].

"بين يدى الخطبة"

خطبة الوداع مشهورة فى مصادر السنة والسيرة، ولكنها لم ترد كاملة إلا فى مصادر قليلة، منها سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى، والمغازى للواقدى وحجة المصطفى - ﷺ - للحافظ المحَدّث مُحِبّ الطبرى.

ورواية الواقدى فى المغازى تختلف عن باقى الروايات، ففيها تقديم وتأخير، وزيادة ونقصان، واختلاف فى الصيغ، وقد رواها عن مصدرين، ينتهى أحدهما إلى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٥ وما بعدها. مكتبة الكليات الأزهرية تعليق طه سعد ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م..

ابن عباس رضى الله عنهما، وينتهى الآخر إلى عمرو بن يثرب وقال: (وزاد أحدهما على الآخر فى القصة) ووردت من الخطبة مقتطفات فى كتب السنة والسيرة، وقد ينسب إلى هذه الخطبة ما لم يرد فى النص الموجود فى المصادر السابقة مما أورد بعضه المحدّث محب الطبرى ثم عقب عليه بقوله: (وهذا القول وما فى الحديثين اللذين رواهما ابن اسحاق قبله يجوز أن يكون قاله - ﷺ - فى خطبته بطن الوادى وليس من عرفة عندنا، وأطلق عليه عرفة لقربه منها، أو أن يكون قاله فى الموقف عند الصخرات وهو الأظهر، ويكون كرر بعض ألفاظ خطبته ببطن الوادى. وذلك لأنه روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما قال: (سمعته ﷺ - يخطب بعرفات) وأورد بعض ما قاله، وعقّب عليه وعلى غيره بما سبق. إذاً فهناك أكثر من خطبة كما يشير إلى ذلك محبّ الطبرى، وكما ذكر ابن القيم أيضاً، وليست خطبة الوداع وحدها هى التى قيلت فى هذا التاريخ، والزيادة والنقصان والتقديم، والتأخير ربما كان راجعاً إلى اختلاط هذه الخطبة بعضها ببعض، خاصة أنها متقاربة فى الزمان والمكان والمضمون، ويقول الأستاذ الدكتور "أحمد محمد على" (ونحن اعتمدنا رواية ابن هشام عن ابن اسحاق لأنها كما يقول محبّ الطبرى: أتمّ)[1]، وهى تقترب اقتراباً شديداً من رواية ابن جرير الطبرى فى تاريخه، ولذا أتممنا من رواية ابن جرير الطبرى بعض ما نقص فيها، مثل آية النسيئ التى وردت فى ابن هشام "إن النسئ" فأخذناها عن الطبرى "إنما النسيئ" لأنها الموافقة للمصحف الشريف. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2].

---

(١) من أسرار البيان النبوى للأستاذ الدكتور أحمد محمد على [عبده زايد] صـ٧١ دار الصحوة للنشر ط الأولى ١٤٠٦ هـ٢٩٨٥م.

(٢) سورة التوبة الآية رقم: ٣٧.

ومثل آية عدة الشهور التى وردت فى ابن هشام "إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً منها أربعة حرم" فأخذناها عن الطبرى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾[1].

كما هو النص القرآنى. وبهذا يكون نص الخطبة معتمداً على رواية ابن هشام ثم رواية الطبرى. كما أن هناك خلافا واضحاً بين نص الخطبة فى رواية "ابن هشام عن ابن اسحاق، وبين نص الخطبة "فى العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى" فى الألفاظ والعبارات وإليك أمثلة – على سبيل المثال، لا الحصر – يقول صاحب العقد الفريد: "اسمعوا منى أُبَيِّنُ لكم"، وفى رواية ابن هشام "اسمعوا قولى"، أيضاً "كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا" بينما نجدها فى ابن هشام "كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا"[2].

كما نجد بعض الجمل من الخطبة غير موجودة البتة فى رواية ابن هشام وكذلك الروض الآنف مثل قوله فى العقد: "وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود، وشبه العمد، ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية[3] ومثل ذلك أيضاً نجده فى "الروض الآنف حيث يقول "فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا"، بينما ذكر ابن هشام: [فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه فقط كما ذكر السهيلى "إن النسيئ"، بينما نراها لدى ابن هشام [إنما النسئ][4] فواضح أن هناك أكثر من خطبة قيلت فى هذا

---

(١) سورة التوبة آية رقم: ٣٦.

(٢) العقد الفريد للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسى – تحقيق محمد سعيد العريان جـ٤ صـ١٢٥ وما بعدها – ط ونشر – دار الفكر.

(٣) ذاته صـ ١٢٥.

(٤) الروض الآنف للسهيلى جـ ٤ صـ٢٣١ قدم له وعلق عليه طه عبد الرءوف سعد مكتبة ومطبعة عباس عبد السلام شقرون.

التاريخ، كما يومئ إلى ذلك الطبرى وابن القيم فى كتاب "زاد المعاد"[1]، وقوله ﷺ: "أيها الناس" والذين وجه إليهم النبى ﷺ النداء موجودون بحضرته يوم النحر

وهو مشرف عليه من فوق ناقته القصواء[2]. وقد خاطبهم بقوله "أيها الناس" ولم يقل أيها المؤمنون، لأن وصاياه – عليه الصلاة والسلام – فى هذه الخطبة الجامعة يمكن أن تقيم مجتمعاً سليماً، وأن فائدة الخطبة وأثرها ليس مقصوراً على الفئة المؤمنة بل كل من يعمل بها من بنى الإنسان لا ريب فى أنه سيعيش سعيداً فى دنياه، وإن آمن، فسيعيش سعيداً فى أخراه. "أن تلقوا" فى تأويل مصدر مجرور بإلى "ربكم" للإشعار بالربوبية والتربية وأن المربى هو الله عز وجل المتفضل على خلقه بالرعاية والعناية، والفضل والإحسان مما يوجب على المرء الطاعة والإذعان له "كحرمة يومكم هذا "وكحرمة شهركم هذا" وفى هذا حث القوم على التنبه واليقظة واستجماع الحواس لما سيلقى عليهم من أوامر ونواهٍ وذلك لأهميتها، كما أن فى اتباعها وتنفيذها سعادتهم فى الدنيا والآخرة "وأنكم ستلقون ربكم" مما يؤكد أن اللقاء مع الله سبحانه أمر ثابت الوقوع ولا ريب فيه، ولا جدال حواليه، فيسألكم عن أعمالكم" والفاء هنا عاطفة وفائدتها ترتيب سؤال الله على اللقاء فسوف يسأل الله كل فرد عن عمله الذى له فيه إرادة واختيار، أمـّا العمل الذى لا إرادة له فيه ولا اختيار فلا يُسأل عنه والخطاب عام للمجتمع بأثره، "وقد بلغت" إن إبلاغ النبى – عليه الصلاة والسلام – لرسالة ربه لم تكن فى حاجة إلى تأكيد، وتوثيق لكنه أدخل على الفعل الماضى حرف التحقيق "قد" ليلفت النظر بتأكيد أن الخطاب جاء بهذا اللفظ لأن المجتمع المسلم لا يخلو من إقامة غير المسلمين فيه وعلى الجميع أن يقوم ببناء المجتمع وإصلاحه وقوله. "اسمعوا قولى" بصيغة الأمر التى تلت صيغة

---

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ط صـ٢٣٨ وانظر أيضا سيرة ابن هشام جـ٤ صـ١٨٥ وما بعدها والمغازى للواقدى جـ٣ صـ ١١١١ وما بعدها تحقيق د/ مارسدن جونز مؤسسة الأعلى للمطبوعات – بيروت – مصورة عن طبعة جامعة اكسفورد بلندن سنة ١٩٦٦م وأسرار البيان النبوى للأستاذ الدكتور / أحمد محمد عبده زايد صـ٧٦.

(٢) المغازى للواقدى جـ٣ صـ١١١١.

النداء ليتنبه المشغول، ويستيقظ الغافل، وصيغة الأمر فى التنبيه أقوى من صيغة النداء[1]. "فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكمْ بعد عامى هــذا بهذا الموقف أبدا" هذا لون آخر من ألوان التنبيه، والعلة فى ذلك إحساس الرسول – عليه الصلاة والسلام– أنه ربما لا تتكرر هذه الفرصة مرة أخرى، ولعل معناها "التوقع لمرجو أو مخوف"[2]. "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام" جاءت الجملة اسمية مؤكدة بـ"إنَّ"، وخبرها جملة اسمية تقدم فيها الخبر وهو "شبه جملة" على المبتدأ "عليكم حرام" والداعى إلى التوكيد هو الرغبة فى توثيق هذا الأمر فى النفوس وتثبيته فى القلوب فى هذا اللقاء الجامع الذى قد لا يتكرر مرة أخرى "إلى أن تلقوا ربكم" يعنى أن حرمة الدماء والأموال والأعراض مستمرة إلى يوم القيامة، و"إلى هنا" غائية هذا الخبر الواضح إلى أهميته وقيمته "فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها" أى من كانت لديه أمانة لأحد فليؤدها إليه، والأمانة فى الإسلام ليست مقصورة على حفظ الودائع والأمـوال، وإنما الأمانة فى الإسلام تنتظم حيوات المسلم جميعها من عبادة وحكم وولاية للأمور من منظور قول رسول الله – ﷺ –: "كلكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته، ولذلك يقول الحسن البصرى رضى الله عنه حين وُلى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بعد وفاة سليمان بن عبد الملك ابن مروان، وكان قد طلب منه النصيحة فقال الحسن: يا أمير المؤمنين إن الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف ونصفة كل مظلوم. يا أمير المؤمنين إن الإمام العادل كالراعى الشفيق الرفيق بإبله يرتاد لها أطيب المرعى ويزود عنها السباع، ويبعدها عن مواطن التهلكة، يا أمير المؤمنين: إن الإمام العادل كالأب الحانى على ولده، يربيهم صغاراً، ويعطف عليهم كباراً، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته إلى آخر ما قال. كما أن الزوجة فى مال زوجها راعية، والولد فى مال أبيه راع، والخادم فى مال سيده راعٍ، وكلهم

---

(١) من أسرار البيان النبوى أ. د أحمد محمد على الأستاذ فى كلية اللغة العربية بالقاهرة صـ ٧٨ بتصرف.

(٢) ذاته وأيضا المقتضب جـ ٤ صـ ١٠٨ تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

مسئول عن رعيته، ولأهميتها يقول النبى ـ ﷺ ـ: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد عنده". ونحن نرجح أن الأمانة فى الإسلام تنتظم حياة المسلم كلها من عبادات، ومعاملات. "وإن كل رباً موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله" ولخطورة الربا وعظم حرمته وشيوعه لدى العرب خصه بنص دون بقية الموضوعات، ثم يؤكد الرسول – عليه الصلاة والسلام – أنه لا ربا وذلك لفظاعة حرمته، وأن جميع أنواع الربا محرمة وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كلّه وذلك لإعطاء القدوة فى أسمى آفاقها، وأعظم غاياتها.

"وإن كل دم من الجاهلية موضوع. وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً فى بنى" ليث فقتله هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. إن الدم عند العرب له مكانه خاصة، لذا أكد النبى ﷺ: حرمته، وفظاعة جرمه، وكما بدأ عليه السلام بوضع ربا عمه العباس بن عبد المطلب بدأ كذلك بوضع دم ابن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عم النبى ﷺ: "وقد بدأ النبى بعشيرته وأقربائه ليؤكد بذلك القدوة المطلوبة فى شخص القائد أو رئيس القوم".

"إن أمر الربا لم يتأخر تحريمه إلى حجة الوداع، وكذلك وضع دماء الجاهلية لم يتأخر إلى حجة الوداع أيضاً والذى حدث من الرسول – عليه الصلاة والسلام – أنه أكد ما سبق تحريمه، وهناك من الوقائع ما يقطع بأن تاريخ وضع دماء الجاهلية كان أسبق من حجة الوداع بمدة كبيرة. ثم يمضى النبى عليه السلام فى خطبته مؤكداً أن عبادة الأصنام انتهت ولن تقوم لها قائمة فى الجزيرة العربية بعد اليوم فقد حطمت الأصنام، وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

ثم ينبه – عليه الصلاة والسلام – إلى أن النسئ فى حقيقته ضرب من العبث بالزمان وهو تأخير حرمة شهر حرام إلى شهر آخر، وكان أول من نسأ الشهور على

العرب فأحلت منها ما أحل، وحرّمت منها ما حرم "القَلَمَّس"[1] وهو "حذيفة بن عبد بن فُقَيم بن عدى عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة" ثم قام بعده على ذلك ابنه عبّاد بن حذيفة ثم قام بعده" قلع بن عبّاد". وقد فخروا بالنسئ فى أشعارهم فقال عمير بن قيس: أحد بنى فراس بن غنم من كنانة يفخر بالنسأة على العرب فيقول:

لقد علمتْ معدّ أن قومى ... كرامُ الناس أن لهم كراما

فأىّ الناس فاتونا بوتر ... وأى الناس لم نُعِلك لجاما

ألسنا النَّاسئين على معدّ ... شهور الحل نجعلها حراما؟[2]

ثم تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن حقوق الأزواج على الزوجات وحقوق الزوجات على الأزواج، وعلى الرغم من أن كل حق للزوج على زوجته هو واجب على الزوجة له، وكل حق للزوجة على الزوج هو واجب عليه لها، فإننا نرى هنا أنه استخدم الحقوق بدلاً من الواجبات، فلم يقل مثلاً إنه يجب على الرجال أنه يفعلوا كذا إلى نسائهم، ولم يقل يجب على النساء أن يفعلن كذا لرجالهن، لأن فى ذكر الحقوق من الفائدة ما ليس فى ذكر الواجبات فلصاحب الحق المطالبة به، والحفاظ عليه، والاستمساك به، وله أن يتنازل عنه إن شاء. أما الواجب، فلا يفيد أن للطرف الآخر حق الدفاع عما وجب له عند صاحبه وحق المطالبة به، إن الحقوق هنا واجبة الأداء، فإن قصر مَنْ عليه الحق فلصاحب الحق أن يسلك الطرق التى شرعها الله تعالى للوصول إلى حقه. وقدم حق الزوج على الزوجة، لأن حق الزوج هو الأصل المقيس[3] عليه، ثم يختتم النبى ﷺ خطبته بتوجيهات راشدة ونصائح غالية "فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف وكذلك الحافظ على النساء" واستوصوا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ صـ٣٨ قدم لها طه سعد مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) ذاته صـ٣٩.

كراما. يعنى آباء كراماً وأخلاقًا كراماً. لجاماً. لم تعد عنهم وتكفهم كما يقدع الغرس باللّجام.

(٣) من أسرار البيان النبوى أ. د/ عبده زايد صـ١٢٧ – دار الصحوة بالقاهرة.

بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى، فإنى قد بلغت. اللهم فاشهد، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا.. كتاب الله وسنتى، وأن كل مسلم أخٌ للمسلم، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم، فقال الناس نعم حين قال: اللهمَّ هل بلغت؟، فرد عليهم الرسول ﷺ: اللهمَّ فاشهد.

ومن خطبه له أيضا (ﷺ):

خطب رسول الله - ﷺ - ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه، ثم أقبل على الناس فقال:

"أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، فإن العبد بينْ مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت. والذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلاّ الجنة أو النّار".

المعنى الإجمالى للخطبة:(*)

هذه الخطبة على وجازتها جاءت بمعان سامية وغزيرة وفيرة يعجز عن الإتيان بمثلها أفصح الخطباء وأقواهم ولا غرو فالخطّيب رسول الله عليه السلام الذى أوتى جوامع الكلم، وأفصح من نطق بالضّاد فيقول عليه الصلاة والسلام: إن لله عز وجل معالم جلية، ومنهبا بيّنا واضحا، فالإسلام بتعاليمه السّامقة، وأوامره السّامية ونواهيه التى لا لبس فيها ولا غموض، والتى أجْلت طرائق الخير ودعت

(*) المعالم جمع "معلم" وهو الأثر الذى يستدل به على الطريق، والمراد به هنا أحكام الله وحدوده. انتهوا: قفوا لديها ولا تعتدوها. والذى نفس محمد بيده. قسم أى أقسم بالله الذى خلق نفس محمد وهو قادر على أخذها، مستعتب. طلب الرّضا.

إليها، وبينت طرق الشرّ ونهت عنها، وبما جاء به من مبادئ قويمة، وتعاليم سوية يضع أمام البشرية جمعاء، الدلائل التى ترشدهم إلى الحق والخير، وتعرفهم بالضّال منها والمنحرف، أو المستقيم، فكان واجبا على الناس الاسترشاد بما جاء به الإسلام الحنيف، وأن يترسموا هديه البيّن، وقد أقام الله سبحانه للناس حدودا أو نهايات للوقوف لديها فى كل أعمالهم، وأقوالهم وتصرفاتهم ثم يلقى النبى ﷺ الأضواء الكاشفة على موقف الإنسان فى الحياة الدنيا مبينا أن المرء بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، وبسبب هذا كان العبد بين مخافتين، فالأمر يتطلب اليقظة، والعمل الدءوب، حتى يكون بمنجاة من سخط الله عز وجل، ثم نرى سيدّ الخطباء ينتقل بعد ذلك إلى تبيان ما يجب على العبد أن يسلكه فى حياته، وهو أن يكبح جِمَاحَ نفسه مما تحبه، وتغريه بارتكابه وأن يبادر إلى الطّاعات، وفعل الصّالحات، والنأى عن ارتكاب المناكر، واقتراف السّيئات، مغتنماً الشبّاب فى تحصيل البرّ والحسنات، قبل أن يطعن فى السّن ويخط الشيب رأسه، وينذره الهرم بالفناء، وأن يغتنم الحياة الدنيا، فيعمل بجد واجتهاد فيها ما يقربه إلى الله سبحانه، قبل فوات الأوان، وإدراك الموت له، ثم يختتم الرّسول عليه السلام خطبته هذه بقسم يؤكد الكلام الذى ساقه من قبل اعتباراً وعظة، وتنبيهاً وإرشاداً، أن الإنسان إذا مات انقطع رجاؤه وانتهى أمله، ودفنت معه فى التّراب آماله وطموحاته، حيث لا فرصة لتدارك ما فات. لقوله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" ولا يصبح أمامه شئ سوى الثواب او العقاب، فله جزاء الجنة إن كان مطيعا، وجهنم يصلاها إذا كان عاصيا مسيئاً.

تعقيب:

هذه خطبة رائعة لرسول الله ﷺ وهى أنموذج رفيع عال للخطابة الإسلامية الرّاقية، يتجلى فيها حرصه عليه السلام على الأخذ بيد البشرية جمعاء إلى فعل الخير، والنّأى عن المناكر واقتراف الآثام، وعلى العبد أن يهتبل فرصة الحياة فيعمل للدار

الآخرة، وهى الباقية الدائمة، يقول سبحانه: "وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون" وفرصة الشباب فيستغله فى فعل الطاعات قبل هرمه وتقدم سنه وإقعاد الشيخوخة له عن العمل، وإعاقته عن تحصيل الخير الذى سيكون سبباً فى سعادته، ورضا ربّه عنه. وقد استهل النبى - عليه الصلاة والسلام - خطبته بنداء عام شامل لكل الناس، وبصورة موحية معبّرة جعلت أوامر الإسلام ونواهيه معالم ودلائل على الطريق البيّن الواضح كى تراها كل عين، ويسترشد بها كل منه كان له قلب، أو ألقى السّمع وهو شهيد، حتى لا تزيغ به الأهواء، ويحيد عن الجادّة ويؤدى به ذلك إلى العمى والغىّ والضّلال، وهى استعارة تصريحية. وقوله عليه السلام "بين مخافتين" تنبيه للعبد ليقدر موقفه، ويعى سلوكه فى الحياة الدنيا.

يقول الشاعر:

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها　　فمن علا زلقا عن غِرّة زلجا

والغاية التى يتغيّاها الرسول - عليه الصلاة والسلام - من قوله: "فليأخذ العبد من نفسه لنفسه" النصح والإرشاد والتوجيه، وهذا تبيان للناس أن الإسلام يهدف إلى تحقيق الخير للبشرية جمعاء. والخطبة مع وجازتها تتميز بالقصد إلى الفكرة، وإمتاع الناس بها، لذا فهى تقرر وتبين، وتصوّر مع التأكيد والتعليل، الأمر الذى يؤثر فى النفس، ويملك عليها أقطارها، كما أن فيها إيجازاً مع الوفاء بالمعنى، وهى أيضاً تمتاز بالعذوبة والسلاسة مع قوة التعبير، وجزالة الألفاظ، كما أنك ترى فيها المقابلات: بين "الدنيا، والآخرة، والشباب والكبر، والجنة والنّار. وأجل قد مضى، وأجل قد بقى، والحياة، والموت. وهى مقابلات نراها قد نبعت عن الموقف ذاته، لذا جاءت قوية التّعبير عنه.

ومما لا ريب فيه أن خطب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وأحاديثه فى قمة الإعجاز البلاغى واللغوى بعد القرآن الكريم، وهى نبع فياض، وبحر خضم،

سيظل معينا يغترف منه الشعراء والأدباء والخطباء والكتاب، ويفيدون منه منهجا وأسلوبا، ألفاظًا وأفكارا.

وصدق أمير القوافى "أحمد شوقى" حين قال:

وإذا خطـــبت فللمنابـــر هـــزّةٌ تعـروا الـنّدىَّ وللقلـوب بكـاءُ[1]

(١) الشوقيات لأحمد شوقى فى جـ ١ صـ ٢٤ – دار اليوسف سنة ١٩٨٧م.

من خطبة لأبى بكر الصديق – رضى الله عنه –
يوم السقيفة(*)

أراد عمر الكلام، فقال له أبو بكر – رضى الله عنه –: على رسلك، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، نحن المهاجرين، أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثر الناس ولادة فى العرب، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ أسلمنا قبلكم، وقدمنا فى القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان" فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواناً فى الدين، وشركاؤنا فى الفئ، وأنصارنا على العدو، آويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرا، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله(١).

(*) يوم السقيفة هو: بعد أن قبض عليه السلام انحاز حى من الانصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة واعتزل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فى بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر ومعهم أسيد بن حضير فى بيت عبد الأشهل ثم أتى على أبى بكر وعمر، فقال: إن هذا الحىّ من الأنصار مع سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم. ثم تداركوا الأمر تمت البيعة لأبى بكر رضى الله عنه.

(١) ذاته صـ ١٢٦ وما بعدها.

ومن خطبة له أيضا عن البيعة

لما بويع أبو بكر - رضى الله عنه - بالخلافة، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم. ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

المعنى الإجمالى:

اعتاد الأمراء والسلاطين والحكام مواجهة الشعوب كلما حظوا بثقتها ونالوا رضاها، وكانت هناك مودة بينهم وبينها، واستطاعوا انتزاع التأييد منها، وذلك بخدمتها، والسهر على رعاية مصالحها، والاهتمام بشئونها، وفى العصر الحديث نرى الحكام يتقدمون أمام الشعب الذى يمثلون، يلقون خطبهم وبياناتهم، عارضين مناهجهم فى سياسة شئون الدولة، فإن وجد ممثلو الشعب خيرا، وافقوا عليه وأقروه، وإن رأوا غير ذلك عارضوه ووضعوا منهجا يرتضونه، أو يقومون بتعديله حتى يصبح فى الصورة التى تتناسب ومصالح الشعب، وذلك ما يعبر عنه بلغة العصر الحديث [بالديمقراطية]، والخليفة أبو بكر - رضى الله عنه - يوضح سياسته فى الحكم فهو يقول: لقد وليت أمر المسلمين، وحملت تبعات سياستهم، وكلمهم، وإرشادهم والسهر على شئونهم، وليس ذلك دليلا على أننى أخيرهم أو أفضلهم، وإنما أنا بشر مثلهم، أخطئ وأصيب، ولذلك طالبهم بمعاونته، ومساعدته فى سياسة الدولة، وأن يكونوا رقباء على تصرفاته، وسلوكه فى حكمه لهم

وسياسته، والنظر فى تصرفاته، فإن رأوه ينهج الحق، وينفذ شريعه الله - سبحانه وتعالى - وسنة رسوله - ﷺ - عضدوه، وإن رأوه غير ذلك نصحوه، وجعل طاعتهم له مرهونة بطاعته لله، فإن هو لم يحكم بما أنزل الله، كانت الرعية فى حل من طاعته، كما أوضح لهم الخليفة أن الضعيف المظلوم قوى لديه، حتى يأخذ له الحق، والقوى بجاهه، وماله، ومنصبه، ضعيف لديه، حتى يأخذ الحق منه، ثم نراه يختتم خطبته القليلة فى مبناها، الغزيرة فى معناها، والتى رسم، وأوضح فيها سياسة حكومته، بالاستغفار لنفسه وللمسلمين السّامعين.

المعنى الإجمالى للخطبة:

هذه خطبة لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وهى من الخطب الإسلامية السامقة، والتى تتجلى فيها خصائص الدستور الذى ألزم الخليفة به نفسه أمام جموع المسلمين المحتشدة يومذاك وهو دستور يستمده من الكتاب والسنة، وهدى الإسلام الحنيف، ومبادئه القويمة السامية التى رسمت للإنسانية جمعاء طرائق السعادة فى دينها، ودنياها، والمتمعن فى هذه الخطبة يدرك دون أدنى ريبة وقعها فى نفوس المسلمين المتطلعين إلى عهد تُظلُّهُ العدالة، وترفرف فوق سمواته المساواة، والحكم العادل بعد عهد يعد من أَجلّ العهود، وأعظمها، ذلك عهد رسول الله - ﷺ - الذى ملأ الدنيا طمأنينة، وعدلا، ومساواة، وكرماً وسماحة ووفاءً وبراً. ومما يسترعى النظر فى هذه الخطبة قول الصديق - رضى الله عنه-: "إنى قد ولِّيت عليكم ولست بخيركم" وذلك لما فيه من التأكيد [بإن، وقد]، وما يدل عليه ذلك التوكيد من تواضع الخليفة، ونأى عن كبرياء الحكم، وزهوه وغطرسته، كما يسترعى النظر تلك المقابلات المبنية عليها خطبته - رضى الله عنه - ومن ذلك قوله: "إن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى" وهى تدل مع وجازتها على مبادئ متعددة، ومن هذه المبادئ، أن الحاكم مقيد بأن يسير فى طرائق الحق، والعدل والمساواة، كما أن الرعية مسئولة عن حكمه فيهم، وأن الصلة بين الحاكم والرعية، صلة مبنية على المحبة والتعاون، والنصيحة، والإرشاد،

والتوجيه من منظور إسلامى لقول الرسول - ﷺ - "الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال عليه السلام: لله ولرسوله، وكتابه، وأئمة المسلمين وعامّتهم".

فعلى الرعية أن تقوّم الحاكم إذا انحرف، وأن تعينه إذا أصاب ومن المقابلات أيضا قوله: "أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته؛ فلا طاعة لى عليكم" وهى دلالة على أن ولاية أمر المسلمين تكليف، وعمل دءوب، وليست بتشريف أو كبرياء، وغرور وصلف، فأساس طاعة الرعية له طاعته لله، وتنفيذه لأوامره، ونواهيه فى سياسته لشئونهم، فإن عصى الله، فلا طاعة له عليهم. ومن المقابلات التى وردت فى خطبته - رضى الله عنه - "ألا إن أقواكم عندى الضعف، حتى آخذ الحق له، وأضعفكمّ عندى القوى حتى آخذ الحق منه"، وهذه الجملة تقرر وتؤكد - دون مواربة - مبدأ العدل والمساواة بين الرعية، دون ظلم أو محاباة، كما أن فى الخطبة اقتباساً، حيث إن أبا بكر - رضى الله عنه - قبس قوله آنف الذكر من قول رسول الله - ﷺ - "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق" وذلك الاقتباس يكسو الكلام ثوبا قشيبا، ويكسبه رونقا وبهاءً وجمالاً. والخطبة على وجازتها، تحمل بين طياتها أفكارا ومعانى كثيرة حيث رسمت الخطبة على إيجازها سياسة دولة مترامية الأطراف، وجاءت ألفاظها متقاربة فى المعنى لا تكلف فيها، ولا غرابة، كما أن المقابلات الواردة منها أنيقة، وعباراتها سلسة، ومترابطة فى قوة ومتانة نسج، وقد استهلّ أبو بكر - رضى الله عنه - خطبته بحمد الله، والثناء عليه، واختتمها بالاستغفار لنفسه ولسامعيه، وهذا نهج سارت عليه الخطابة الإسلامية منذ بدء الدعوة.

ومن خطبة الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لدى البيعة:

لما ولى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الخلافة، حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (يأيها الناس، إنى داع فأمِّنُواْ: اللهم إنى غليظ فلينّى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق، من غير ظلم منى لهم، ولا اعتداء عليهم، اللهم إنى شحيح

فسخّنى فى نوائب المعروف، قصدا من غير سرف ولا تبذير، ولا رياء ولا سمعة، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة، اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان، فألهمنى ذكْرك على كل حال، وذكر الموت فى كل حين، اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاَعتك فارزقنى الناشط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعونك وتوفيقك، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك، والحياء منك، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى، والمحاسبة لنفسى، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات، اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلزه لسانى من كتابك، والفهم له، والمعركة بمعانيه، والنظر فى عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت، إنك على كل شئ قدير.

المعنى الإجمالى للخطبة:

هذه خطبة للخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهى صفة شهيرة ميزت عمر عن بقية الخلفاء، وجميعهم عدول، فهم الصفوة الذين رباهم قائد هذه الأمة، سيدنا محمد - ﷺ - على مائدة القرآن الكريم، والسنة المطهرة بيد أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - غلبت عليه هذه الصفة، لأنه كان شديدا قاسيا على الخارجين، والمتمردين، والظالمين، فلذلك غلبت عليه هذه الصفة دون بقية الصفات واشتهر بها، فلقد كان جباراً فى الجاهلية، وعملاقا فى الإسلام، لذلك استجاب الله دعاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - فيه حين اتجه إلى السماء داعيا (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين - عمر بن هشام، وهو الشهير بأبى جهل، وعمر بن الخطاب - رضى الله عنه) فكتب الله السعادة لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فاعتز به الإسلام، وهاجر نهارا جهارا قائلا كلمته الشهيرة: (من أراد أن تثكله أمه فليتبعنى)، وفى رواية أخرى (ليلقنى وراء هذا الوادى) فما تبعه أحد، فليس هناك حاكم يشبه عمر فى حكمه وعدله، حتى صار الأمر إذا ذكر العدل ذكر عمر، وإذا ذكر عمر ذكر العدل. فهو حاكم ملأ ربوع الأرض عدلا وسماحة ولينا مع غلظة وشدة فى الحق، وقوة فى تنفيذ حدود الله، وهو فى هذه الخطبة التى استهل

بها عهده فى الحكم نراه يتجه إلى الله عز وجل، راجيا من الله أن يكلأه برعايته، ويشمله بعنايته، فى هذه الفتنة التى ابتلى بها، فهو مؤمن بأن الحكم ابتلاء من الله سبحانه وتعالى، وهو امتحان مرير، وشديد قاسٍ، من اجتازه بنجاح فذلك توفيق من الله للحاكم فى حياته الدنيوية، وثواب عظيم له فى حياته الأخروية، لذا فإن أمير المؤمنين عمر – رضى الله عنه – يتوجه بحديثه إلى الرعية، طالبا منهم المشاركة فى الدعاء إلى الله، وأن يتجهوا معه إلى رب العباد أجمعين، راجين أن يحول الله قلب عمر من الغلظة إلى اللين فى معاملته لأهل البر والتقوى، وأن يظل على غلظته وشدته وقساوته فى معاملة أهل الشر والعدوان دون ظلم لهم، أو عدوان عليهم، ثم يتجه إلى ربه سبحانه طالبا منه التوفيق فى العطاء دون تبذير أو إسراف، وأن يجعل هذا العطاء دوما فى سبيل الله، لتحقيق الأهداف السامية، والخلال النبيلة، دون مواجهة للرعية، ولا حبا فى الإطراء والمديح، كما أن الخليفة يسأل الله تبارك وتعالى أن يجعله دائم التواضع للمسلمين، ليّن الجانب لهم، عطوفا متسامحا فى معاملتهم، حتى يكتسب بهذه الخلال الرفيعة رضا ربه عز وجل. كما أنه يطلب من الله سبحانه أن يرزقه خفض الجناح للمؤمنين اقتداء برسول الله – ﷺ – حيث أمره ربه بذلك فقال تعالى: "واخفض جناحك للمؤمنين" كما أنه كثير الغفلة والنسيان، فيطلب من ربه أن يلهمه ذكْره على كل حال، وذكر الموت فى كل حين، وأن يرزقه النشاط فى العمل، والقوة على ذلك بالنية الحسنة والتى لا تكون إلا بعون الله سبحانه وتوفيقه لعباده، وأن يثبته باليقين والتقوى والبر، والحياء من الله، وأن يرزقه الخشوع والخضوع، ومحاسبة النفس. قال رسول الله – ﷺ –:

"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم"، كما يرجو الله سبحانه أن يقيه شر الشبهات ويرزقه التدبر، والتفكر لما يتلوه من القرآن الكريم، عملا بقول الحق "أفلا يتدبرون القرآن"؟، والفهم لمعانيه والنظر فى عجائبه، والعمل بما جاء فى القرآن الكريم من أوامر ونواهٍ، إنه سبحانه على كل شئ قدير.

دراسة التحليل:

هذه خطبة من الخطب الإسلامية لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهى فى الحقيقة أقرب إلى الدعاء منها إلى الخطابة، وليس أدل على ذلك من عباراتها الواردة فى الخطبة. فهى دعا أن يلينه لأهل الطاعة، وأن يجعله غليظا لأهل النفاق والمناكر، وأن يرزقه التدبر فى القرآن... وهكذا، كل العبارات التى وردت على لسان الخطيب (عمر)، ولولا أنه بدأ خطبته هذه بحمد الله والثناء عليه كعادة الخطباء فى استهلالهم الخطب الإسلامية لكان فى وسعنا ومن حقنا أن نقول: إن كلام عمر - رضى الله عنه - هذا لا يعدو أن يكون (ابتهالات) يتجه بها إلى الله عز وجل فى أول عهده للخلافة، وحكم المسلمين ليوفقه فى مهمته الصعبة وهى ولايته للمسلمين، وإن كان الخطبة أقرب إلى الدعاء منها إلى الخطابة إلا أننا نستطيع أن نقول: إن المتأمل لكلام لعمر يلمس بين ثناياه اتجاهه الذى عقد العزم عليه فى حكمه، والنهج الذى خطه لسياسة دولته، والسبيل الذى سينهجه فى معاملته لرعيته فهو غليظ فى غير عنف، ولين فى غير ضعف، شحيح بمال المسلمين، سخى بما يملكه، لأن مال المسلمين مال عام مسئول عن التصرف فيه أمام الله عز وجل، وهو متواضع فى أنفة وعزة، متسام دون غرور أو صلف، ودون تكبر أو تجبر، وهو يعمل إرضاء لله سبحانه، دون رغبة فى سمعة أوإطراء، وهذه أخلاق وصفات وشمائل يندر أن تتوفر أو يوجد لها نظير فى عداد الحكام، وخاصة فى هذا العصر الأنكد، والخطبة فيها أسلوب خبرى هو (إنى داع فأمّنوا) ذكر بالتوكيد لاستثارة الهمم وحفزها على المشاركة فى الدعاء، كما أن الخطبة تعج بأساليب الأمر الكثير مثل: وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك، واللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف، فألهمنى ذكرك على كل حال، اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك، واللهم أرزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين. وأساليب الأمر هذه التى يتوجه بها إلى الله عز وجل هى لدى علماء البلاغة (رجاء)، حيث إنها أمر

من الأدنى إلى الأعلى، والأمر من الأدنى إلى الأعلى رجاء فى عرف البلاغيين، وفيها مقابلات طريفة كقوله – رضى الله عنه –: [اللهم إنى غليظ فَلَيِّنّى، اللهم إنى شحيح فسخنى]، وهذه المقابلات الطريفة تكسب الكلام رونقا، وحسنا، وبهاء، وجمالا. والخطبة بعد ذلك جاءت سهلة الألفاظ، واضحة المعانى، جميلة التقسيم، رائعة القصد، سامية الغايات تومئ بقوة إلى ما أحدثته الثقافة الإسلامية من أثر جلى فى الخطابة بكل ألوانها من خطابة دينية، أو اجتماعية، أو سياسية.

ومن خطبة له أيضا – رضى الله عنه – بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، قال:

"أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت "أبى بن كعب" ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت "زيد بن ثابت"، ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت "معاذ بن جبل"، ومن اراد أنى سأل عن المال فليأتنى، فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً، إنّى بادئ بأزواج رسول الله – ﷺ – فمعطيهم، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابى، بالأنصار الذين تبوءوا الدّار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطئ عنه العطاء، فلا يلومنّ رجل إلا مناخ راحلته. إنّى قد بقيت فيكم بعد صاحبى فابتليت بكم، وابتليتم بى، وإن لن يحضرنى من أموركم شئ فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فلئن أحسنُوا لأحسننّ إليهم، ولئن أساءوا لأنكّلن بهم[1]".

وخطب أيضا، فقال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه:

أيها الناس، تعلموا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، واعلموا أنه لم يبلغ من حق مخلوق أن يطاع فى معصية الخالق، ألا وإنى أنزلتْ نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم، وإن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تغرّم البَهمْة الأعرامية، القصَم دون الخضم.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٤ صـ١٢٩ وما بعدها ط دار الفكر.
الفرائض. المواريث. التنكيل. التعذيب.

المعنى الإجمالى للخطبة:

ونرى الإمام العادل "عمر بن الخطاب" - رضى الله عنه - يقوم فى الناس خطيباً فيناديهم قائلاً: أيها النّاس، تعلّموا القرآن تعرفوا به، ويرمز إليكم بالبنان تكرمة وإجلالاً لكتاب الله الذى تعلمتموه، وتلوتموه، واعملوا بما جاء فيه من أوامر، ونواه؛ تكونوا بذلك من أهل القرآن والذين يشفع فيهم يوم القيامة، وليس لمخلوقٍ طاعة فى معصية الخالق مهما سمت مكانته، وعلا شأنه، وإنى أنزلت نفسى من مال الله سبحانه - خزينة بيت مال المسلمين - أو المال العام بلغة العصر الحديث - منزلة الوصىّ على مال الأيتام، إن كان غنيّا عَفّ، وإن كان فقيرا أكل منه بالمعروف، دون سَرَف أو تَرَفٍ. وهو بذلك يومئ إلى قول الله عزّ وجل: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[1].

وهذا ديدن المسلم الخائف من الله عز وجلّ، وتلك طبيعته وهجّيراه[*].

وخطب أيضا فقال:

أيها الناس: "اتقوا الله فى سريرتكم وعلانيتكم، وأُمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه، فنظر إليه أصحابه فمنعوه، فقال: هو موضعى، ولى أن أحكم فيه، فإن أخذوا على يده سَلم وسلموا، وإن تركوه هلك وهلكوا معه، وهذا مثل ضربته لكم. رحمنا الله وإياكم"[2].

المعنى الإجمالى للخطبة:

وفى خطبته هذه - رضى الله عنه - يطالب النّاس بتقوى الله فى السرّ والعلن،

---

(١) سورة النساء الآية رقم: ٦.

(٢) ذاته صـ١٣١.

* هجّيراه: أى طبيعته.

وهى من وصايا الرسول – عليه الصلاة والسلام – حين قال: أو صانى ربّى بتسع أوصيكم بها، ومنها "تقوى الله فى السّر والعلن" وأن يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا، ونظرى عبرا..." كما طالبهم بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ولا يكون مثلهم كمثل القوم الذين استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فهمّ أحدهم بخرق السّفينة ليحصل على الماء، حتى لا يؤذى غيره فى المرور بالماء من أعلى إلى أسفل، فلو أنهم تركوه يفعل ذلك، لهلك وهلكوا، ولو منعوه بالقوة، لنجا ونجوا جميعا، وفى هذا دليل على أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن المصلحة العامة مقدّمة على المصالح الخاصّة، ومحاربة الفساد والمفسدين، ولو أدّى الأمر إلى استخدام القوة معهم، حرصا على نجاة الجميع من الهلاك، وحماية المجتمع الإسلامى من الفساد ولذلك كانت الأمة المحمدية من خير الأمم لهذا المعنى. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

فالخيرية للأمة المحمدية لقيامها بالأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر بعد الإيمان بالله سبحانه.

وخطب – رضى الله عنه – عام الرّمادة بالعباس رحمه الله، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال:

أيها الناس، استغفورا ربكم إنه كان غفّارا، اللهم إنّى أستغفرك وأتوب إليك، اللهّم إنّا نتقرب إليك بعمّ نبيك وبقية آبائه، وكبار رجله، فإنك تقول وقولك الحق: "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا" فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهّم نبيّك فى عمّه، اللهّم اغفر لنا إنّك كنت غفّاراً، اللهّم أنت الرّاعى، لا تهمل الضّالة، ولا تدع الكسيرة بمضيعة، اللهّم

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم: ١١٠.

قد ضرع الصّغير، ورقّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السّر وأخفى، اللهّم أغثهم بغياثك، قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلاّ القوم الكافرون، فما برحوا حتّى علّقوا الحذاء، ولقصوا المآزر، وطفق الناس بالباس يقولون: "هنيئا لك يا ساقى الحرمين"[1].

خطبة لعثمان بن عفّان – رضى الله عنه-:

ولما ولى عثمان بن عفان قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهّد، ثم أُرتج عليه، فقال: "أيها الناس، إن أول كلّ مركب صعب وإن أَعِشْ فستأتيكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسرا"[2].

المعنى:

وفى الخطبة السّابقة لسيدنا عثمان بن عفان – رضى الله عنه – حين ولّى أمر المسلمين فقام فيهم خطيبا، ثم أرتج عليه أى تلعثم ولم يستطع مواصلة الحديث، بيد أنه بكلماته الموجزة استطاع أن يوجّه الناس إلى أمر جَلَل، وهو أن كلّ ولاية، بل كل أمر فى بدايته صعب على صاحبه، فهو فى موضع اختبار وامتحان عسير، وإن أعش فسأوجهكم وأرشدكم من خلال الخطب التى سألقيها عليكم، وسيجعل الله سبحانه من بعد عسر يسرا، وبعد كلّ ضيق فرجا، ومن كلّ مأزق مخرجا.

ومن خطبة أخرى لعثمان بن عفان – رضى الله عنه :

يقول فيها: "إن لكل شئ آفة، ولكل نعمة عاهة. فى هذا الدين غيّابون ظانون، يظهر لكم ماتحبون ويسرون ما تكرهوْن، ويقولون لكم وتقولون، طعام مثل النّعام، يتبعون أول ناعق. أحبّ أمورهم إليهم النازح. لقد أقررتم لابن الخطاب أكثر مما نقمتم عَلَىّ ولكن وقمكم، وقمعكم وزجركم زجر النعامة المخزومة، وإنى والله

---

(١) ذاته صـ١٢١، ١٣٢.

(٢) العقد الفريد جـ٤ صـ١٣٣.

لأقرب ناصراً، وأعزّ نفرا وأقمن إن قلت "هلمّ" أن تجاب دعوتى من غيرى هل تفقدون من حقوقكم شيئاً؟ فمالى لا أفعل فى الحق ما أشاء؟ إذن فلم كنت إمَامَا؟

التحليل والدراسة:

(١) مناد يرفع صوته - المسافر المنتهى - حقدتم: قهْركم وأذلكم، المربوطة فى أنفها، أجدر، الناهة، الآفة يقال: عِيةَ الزّرع فهو معيوّه مختار الصحاح مادة: ٤ و ٥: وقمكم: الوقم، جذبك العنان، وقم الدابة، جذب عنانها لتكفّ، ووقم الرجل وقْما ووقّمهُ: أذلّه وقهره، وقيل: ردّه أقبح الرّد وأنشد الجوهَرى:

بـه أقِـمُ الـشّجَاعُ لـه حُـصَاصٌ مـن القَطِمِـينَ إذْ فـرّ اللّـيوثُ[1]

وهلم. بمعنى: أقبل. وهذه الكلمة مركبة من: ها: التى للتنبيه، ومن [لُمَّ]، ولكنها قد استعملت استعمال الكلمة المفردة البسيطة، وزعم سيبويه أن "هلمّ" هى [ها] ضمت إليها [لُـمّ] وجعلتا كالكلمة الواحدة وأكثر اللغات أن يقال: هلم للواحد والاثنين والجماعة وبذلك نزل القرآن الكريم "هلمّ إلينا" و "هلمّ شهداءكم" وقال سيبويه "هلمّ فى لغة أهل الحجاز يكون للواحد والاثنين والجمع والذكر والأنثى بلفظ واحد[2].

ومن خطبة له أيضا - رضى الله عنه:

لدى البيعة

لما بويع عثمان بن عفَان - رضى الله عنه - بالخلافة، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد. فإنّى قد حملت، وقد قبلت، ألا وإنّى متبع، ولست بمبتدع[3]. ألا وإنّى لكم

---

(١) لسان العرب لابن منظور. باب الواو. والكلمة هذه فى المجلد السادس صـ٤٩٠٠ ط دار المعارف بالقاهرة.

(٢) ذاته باب الهاء صـ٤٦٩٤.

(٣) لست بمبتدع: لست بمخترع شيئا من عندى وإنما متبع لسنن المهديين من قبلى الذين عملوا بشرع الله.

علىّ بعد كتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - ثلاثاً. اتّباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنّة أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ، والكفّ[1] فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة[2] قد شبّهت إلى النّاس، فلا تركنوا[3] إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنّها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلاّ من تركها.

المعنى الإجمالى للخطبة:

يقول الإمام عثمان بن عفان - رضى الله عنه - حين ولى الخلافة:

إنى حملت تبعات المسلمين، وقبلت هذه المهمة الشاقة، وإنى فيها متبع سنن الخلفاء من قبلى، ولست مبتدعاً لشئ من تلقاء نفسى، ولكن على اتباع المنهج وهو كتاب الله وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - ثم ما أجمعتم عليه وسننتموه قبلى من سنن الخير والفلاح، ثم نرى الخليفة "عثمان" - رضى الله عنه - يحذر الرعية من فتن الدنيا، فيقول لهم: لا تركنوا إليها، حيث إن الدنيا حلوة خضرة، خدّاعة غرّارة، ولا تثقوا بها، فهى ليس بثقة، واعلموا أنها لا تترك إلاّ من تركها، وتشغل كلّ من شغل بها. يقول الشاعر فى هذا المعنى:

هى الدّنيا إذا اكتملت ... وطاب نعيمها قتلَتْ

فلا تفرح بلذتها ... فباللذات قد شَغَلتْ

وكن منها على حذر ... وَخِفْ منها إذا اعْتدَلَتْ

ولا يغررْك زخرفها ... فكم من نعمة سُلِبَتْ[4]

---

(١) الكف: المنع.

(٢) خضرة: حُلوة تغر الناس وتخدعهم بزينتها.

(٣) لا تركنوا: لا تطمئنوا.

(٤) الطالع السعيد فى ذكر الأفاضل والنّجباء من أبناء الصّعيد لمؤلفه كمال الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوى صـ٢٦٥ ط الدار المصرية لكتاب أكتوبر سنة ١٩٦٦م.

خطبة للإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ
فى الجهاد فى سبيل الله

لما أغار "سفيان بن عوف الأزدي" على الأنبار، فى خلافة على ـ رضى الله عنه ـ وعليها "ابن حسّان البكري" فقتله، وأزال تلك الخيل عن مسالحها، فخرج على رضى الله عنه حتى جلس على باب السُّدّة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أمّا بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذّل، وشَمْلة البلاء، وألزمه الصّغار، وسامه الخف، ومنعه النَّصف، ألا وإنّى دعوْتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزِى قوم قطّ فى عُقر دارهم إلاّ ذلّوا. فتواكلتهم وتخاذلتهم وثقل عليكم قولى فاتخذتموه وراءكم ظهريّا، حتّى شُنّت عليكم الغارات. وهذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار، وقتل "ابن حسّان البكري" وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالاً صالحين، وقد بلغنى أن الرّجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينزع حجلها وقلبها ورعاثها، ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل منهم، فلو أنّ رجلا مسلما مات من بعد هذا أسفاً ما كان عندى ملوماَ، بل كان به عندى جديرا، فواعجباً من جدّ هؤلاء فى باطلهم وفشلكم عن حقّكم، فقبحًا لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يُرمَى، يغار عليكم ولا تُغيرون، وتفرون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضوْن، فإذا أمرتكم بالمسير إليهم فى أيام الحرّ، قلتم: حمّارة القيظ، أمهلنا حتى ينسلخ عّنا الحرّ! وإذا أمرتكم بالمسير إليهم ضحى فى الشّتاء، قلتم:

[صُيّارة القُّر] أمهلنا حتى ينسلخ عنّا هذا القرّ! كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ فأنتم والله من السيف أفرّ! يا أشباه الرجال ولا رجال! ويا أحلام أطفال وعقول ربّات الحجال! وددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم، وقبضنى إلى رحمته من بينكم وأنى لم أركم ولم أعرفكم! معرفة والله جرّت وهناً! [لقد ملأتم قلبى قيحا] وورّيْتم والله صدرى غيظاً، وجرّعتمونى فى الموت أنفاساً وأفسدتم علىّ وأبى بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إنّ ابن أبى طالب شجاع، ولكن لا علم له بالحرب! لله أبوهم! وهل منهم أحدُ أشدّ لها مراساً وأطول تجربة منّي! لقد مارستها وأنا ابن عشرين، فها أنذا الآن قد نيّفت على السّتين، ولكن لا أرى لمن لا يطاع[1]!

"ووريتم" أصل "الورْى" قيح يكون فى الجوف، ووريته ورْياً أصبت رئته والمعنى ملأتم صدرى غيظا[2].

ومن خطبة له أيضا ـ رضى الله عنه ـ قام فيهم فقال:

"أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم! كلامكم يوهى الصّم الصّلاب، وفعلكم يطمع فيكم عدوّكم، تقولون فى المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم [حيدي] حياد ما عرت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب قاساكم، أعاليل بأباطيل وسألتمونى التأخير، دفاع الدَّين الممطول، ألا، لا يدفع الضّيم الذّليل، ولا يترك الحقّ إلاّ بالجدّ. أى دار بعد داركم. نمنعون؟ أم مع أى إمام بعدى تقاتلون؟ المغرور والله من غرّرتموه، ومن فاز بكم فاز بالسّهم الأخيب! أصبحت والله لا أصدّق قولكم، ولا أطمع فى نُصْركم، فرّق الله بينى وبينكم، وأعقبنى بكم من هو خير لى منكم! وددت والله أن لى بكلّ عشرة منكم رجلاً من بنى فراس بن غنم، صْرف الدّينار بالدّرهم"[3]!

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ج ٤ ص١٣٦ وما بعدها.

(٢) اللسان ص ٤٨٢١ باب الواو.

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص١٣٧ وما بعدها.

ومن خطبة له أيضا ـ رضى الله عنه ـ فى استنفار أصحابه للقتال:

قال ـ رضى الله عنه ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"عباد الله مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا[1] فى سبيل الله اثّاقلتم[2] إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً؟ وبالذّل والهوان من العزّ خلفا؟ لله أنتمّ تكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون[3]، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون، وإنّ أخا الحرب اليقظان ذو العقل، وبات لذل من وادع، وغلب المتخاذلون، والمغلوب مقهور ومسلوب.

أما بعد: فإن لى عليكم حقًّا، وإن لكم علىّ حقًّا، فأما حقكم علىّ فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوفير فيئكم[4] عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا، وأمّا حقّى عليكم فالوفاء بالبيعة، والنّصح لى فى المغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، والطّاعة حين آمركم. فإن يرد الله خيراً تنزعُوا[5] عمّا أكره، وترجعوا إلى ما أحبّ، فتنالوا ما تطلبون وتدركون ما تأملون".

المعنى الإجمالى للخطبة:

عقيب مقتل الخليفة "عثمان بن عفان" ـ رضى الله عنه ـ نشب خلاف حادّ بين الإمام "على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ومعاوية بن أبى سفيان على الخلافة، وكان "معاوية" يصبو إليها، ويخطّطُ لها، تسانده قوة ضاربة تعضده وتؤازره.

فقام الإمام "على بن أبى طالب" ـ رضى الله عنه ـ خطيبا فى أصحابه ومؤيّده، يستنفرهم للقتال، ويحفزهم إلى حرب "معاوية" فيقول لهم: مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله تباطأتم، وتقاعستم، أرضيتم بنعيم الدنيا، وزخرفها الخدّاع

---

(١) تنفروا: تمضوا للقتال.
(٢) اثّاقلتم: تباطأتم.
(٣) تمتعضون: تشمئزّون.
(٤) فيئكم: عطَائكم.
(٥) تنزعوا: تكفّوا.

وبهرجها الكذّاب، وفضّلتموها على الدّار الآخرة، وهى الحيوان والحياة الدائمة الباقية، ذات النعيم الخالد المقيم، ورضيتم بحياة الهوان والذّل والصّغار، بدلاً من العزّة والكرامة والشّمم والإباء، ما الذى حدث لكم؟!! يتعجب الإمام "على" من أمر هؤلاء القوم فيخاطبهم قائلا: لقد بلغ بكم الخور والضّعف أنّكم تكادون ولا تكيدون، وتغتصب أرضكم فلا تعبأون ولا تشمئزّون ولا تغضبون، وإن عدوّكم بالمرصاد لكم، غير سَاهٍ عنكم، وأنتم عنه ساهون، وعن حربه وردّ كيده غافلون، وكان من واجبكم اليقظة لعدوكم والحذر منه، فمن وّطن نفسه على الموادعة لحقه الهوان، وشمله الذّل، وأحاطت به الهزيمة، والمهزوم دوماً مقهور النَفس مسلوب الحق. ثم يشرع الخطيب على ـ رضى الله عنه ـ فى تبيان ماله من حقوق على أصحابه، وما لهم عليه من واجبات وتلك شيمة الإمام العادل، فحقهم عليه إسداء النّصيحة لهم، وتوفير الفيء، وأن يعلمهم ويؤدّبهم، وحقه عليهم وفاؤهم له بالبيعة مع إسداء النصح له فى المشهد والمغيب، والاستجابة لدعوته حين يستنفرهم للقتال مع الطّاعة لأمره والانقياد لرغبته، فإن يرد الله بهم خيراً كفّوا عن التقاعس والخذلان، والتباطؤ فى القتال، ويرجعون إلى ما يحبّ من النهّوض إلى مناجزة أعدائه، وبهذا العمل ينالون ما يطلبون ويدركون ما يؤمّلون، ويحققون ما يرغبون.

هذه الخطبة لمن عرف بالفصاحة والبلاغة، واللّسن والقول الإمام "على بن أبى طالب" رضى الله عنه، فقد كان محدّثا بارعا وخطيبا لَسناً لا يشق له غبار، كما كان رضى الله عنه فارسا مغواراً وبطلا شجاعاً، وليس أدلّ على ذلك من مواقفه الشهيرة فى الإسلام منذ يفاعته، فهو الذى بارز "عمرو بن ودّن" وهو غلام وغير ذلك كثير من المواقف البطولية التى وعاها التاريخ له، بل لا يستطيع أن يطبق فمه عن تسجيلها والإشادة بها مع الإكبار والإجلال له وبشجاعته، ويكفيه شجاعة وفدائية نومه فى مكان رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة الهجرة.

ونراه ـ رضى الله عنه ـ فى خطبته هذه يميل إلى الدّعة والهدوء، عازفاً عن العنف فى الأسلوب الذى خاطب أصحابه، جانحاً إلى إطلاق الأحكام، مع ضرب الأمثال

للاعتبار، مع الإتيان بطائفة من أقواله المأثورة، مستثيرا بها الهمم، ومحرّضاً على القتال، موضحا موقفهم من عدوهم، وموقف عدوهم منهم فهم ساهون، وخُصومهم متيقظون. ثم نراه ـ رضى الله عنه ـ فى ختام خطبته يبلغ من الهدوء أكمله، ومن اللّين أجمله، ومن الرّفق أزينه، يتجلى ذلك فى تبيانه الحقوق الواجبة عليه حيالهم، وما يجب له عليهم من النهوض لمؤازرته ومجاهدة خصومه، مع السّمع له والطّاعة لأوامره. وقد انتظمت الخطبة أساليب متعدّدة مثل قوله: مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا فى سبيل الله اثّاقلتم"؟ فهو استفهام إنكارى تعجّبى، ينكر عليهم تخاذلهم وغفلتهم عما يدبره لهم أعداؤهم متعجباً من حالهم هذه. وكذلك قوله: "أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة" وكذلك التعجب فى قوله "لله أنتم" والأسلوب الخبرى الكامن فى قوله "إن لى عليكم حقّا وجاء مؤكّدا "بإنّ" دالاً على النّصح والإرشاد. وكذلك قوله "وإن لكم على حقاً" كما أننا نرى المقابلة فى قوله: "الحياة الدنيا، من الآخرة" "وتكادون، ولا تكيدون" "ولا ينام عنكم، وأنتم فى غفلة ساهون" وجميع هذه الأساليب تكسو الكلام ثوباً قشيباً، وتزيده روعة وبهاء، وحسنا وجمالاً. والخطيب فى خطبته هذه متأثر بالأسلوب القرآنى، فقد قبس من معانيه، واغترف من صوره وألفاظه. نرى ذلك فى قوله: مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض" وقد قبس ذلك من قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (١)

وكذلك الألفاظ. مثل: "وأنتم فى غفلة ساهون" فهذا اللقط مقبوس من القرآن الكريم وهو قوله عز وجل: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة التوبة الآية رقم: ٣٨.

(٢) سورة الماعون الآية رقم: [٤، ٥].

"والمغلوب مقهور ومسلوب" فهو مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [1]

كما نرى الألوان البلاغية التى تعجّ بها الخطبة كالسجع القصير المحبب إلى النفس والذى يخلب لبّ السّامع، ويملك عليه أقطار نفسه مثل قوله: "نالوا ما تطلبون، وتدركون ما تأملون و: "فلا تمتعضون" وأنتم فى غفلة ساهون" والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم" فاتفاق الفواصل فى الحرف الأخير يكسب الكلام رونقا وبهاء، ويضفى عليه حسناً وجمالا، وهو ما يسمّيه البلاغيون بالسجع، وكذلك كان علىٌّ رضى الله عنه متأثرا بالقرآن الكريم فى جميع خطبه وسيظل القرآن الكريم المعين الذى لا ينضب والينبوع الثّرى الذى يغترف منه الخطباء، والأدباء، والعلماء والبلغاء. والخطبة تعدّ أنموذجاً جلياً للخطابة فى العصر الإسلامى لما حوته من يسر فى العبارة، وحرص على انتفاء الألفاظ، وتخير التراكيب، مع الإيجاز غير المخلّ فى الأسلوب، وقصر الفقرات، ذات الجرس القوى، والمعانى الموحية. ومما زادها جمالاً وروعة ما حوته الخطبة من تنوع من الأسلوب من بين تعجب واستفهام وإنكار، وقوة العاطفة، وتدفق المشاعر. وتلك خصائص الأسلوب الخطابى المتوخى التأثير فى السّامعين، وتحريك مشاعرهم وحفز هممهم. ولا غرو، فخطب الإمام على ـ رضى الله عنه ـ وكلماته تعد بحق قمة سامقة، وروضة أُنُف، فهو الخطيب الذى لا يبارى فى ذرابة لسانه، وقوّة بيانه، وروعة أدائه.

---

(١) سورة القمر الآية رقم: ١٠.

"توقيعات الخلفاء الراشدين"

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

كتب إليه سعد بن أبى وقاص فى بنيان يبنيه، فوقَّع فى أسفل كتابه: ابن ما يُكنُّك من الهواجر وأذى المطر.

ووقع إلى عمرو بن العاص: كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك.

عثمان بن عفان (رضى الله عنه)

وقع فى قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بَوِجَء أعناقهم: "فإن عصوْك فقل إنى برئ مما تعلمون".

ووقع فى قصة رجل شكا عيلة عليه: قد أمرنا لك بما يقيمك، وليس فى مال الله فضل للمسرف.

على بن أبى طالب (كرم الله وجهه)[1]

وَقَّعَ إلى طلحة بن عبيد الله: فى بيته يُؤْتَى الحَكم.

ووقَّع فى كتاب جاءه من الحسن بن على ـ رضى الله عنه: رأى الشيخ خير من مشهد الغلام.

ووقَّع فى كتاب سلمان الفارسى ـ وسأله كيف يحاسَب الناس يوم القيامة؟ـ: يحاسبون كما يرزقون.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان ج٤ ص٢٥٦ ـ دار الفكر بدون تاريخ.

ووقع فى كتاب الحصين بن المنذر إليه يذكر أنّ السيف قد أكثر فى ربيعة: بقية السيف أنْمَى عددا.

وفى كتاب جاءه من الأشتر النخعى فيه بعض ما يكره: مَن لك بأخيك كلِّه؟

وفى كتاب صعصعة بن صُوحان يسأله فى شئ: قيمة كل امرئ ما يحسن.

معاوية بن أبى سفيان[1]

كتب إليه عبد الله بن عامر فى أمر عاتبه فيه، فوقَّع فى أسفل كتابه ببيت أمية فى الجاهلية أشرف من بيت حبيب فى الإسلام، فأنت تراه وفى كتاب زياد يخبره بطعن عبد الله بن عباس فى خلافته: إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا فى الجاهلية فى مسلاخ واحد، وذلك حلف لا يحله سوء أدبك.

وكتب إليه ربيعة بن عسل اليربوعى يسأله أن يعينه فى بناء داره بالبصرة بإثنى عشر ألف جِذع: أدارك فى البصرة، أم البصرة فى دارك؟

يزيد بن معاوية

وقَّع فى كتاب عبد الله بن جعفر إليه يستميحه لرجال من خاصته: احكم لهم بآمالهم إلى منتهى آجالهم ـ فحكم (لهم) بتسعمائة ألف: فأجازها.

وكتب إليه مسلم بن عقبة المرى بالذى صنع أهلُ الحرّة، فوقَّع فى أسفل كتابه: "فلا تَأْس على القوم الفاسقين".

وفى كتاب مسلم بن زياد عامله على خرسان، وقد استبطأه فى الخراج: قليلُ العتاب يُحْكم مرائر الأسباب، وكثيرة يقطع أواخىَ الانتساب.

ووقَّع إلى عبد الرحمن بن زياد وهو عامله على خرسان: القرابة واشجة، والأفعال متباينة؛ فخذ لرِحَمك من فعلك.

---

(١) ذاته ص ٢٥٧.

وإلى عبيد الله بن زياد: أنت أحد أعضاء ابن عمك، فاحرص أن تكون كلَّها.

عبد الملك بن مروان[1]

وقَّع فى كتاب أتاه من الحجاج (يشكو إليه نفراً من بنى هاشم ويغريه بهم) جَنبّنْى دماء بنى عبد المطلب، فليس فيها شفاء من الطلب.

وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسى منهم ويستأذنه فى قتل أشرافهم، فوقَّع له: إنّ من يُمْن السائس أن يأتلف به المختلفون، ومن شُؤمه أن يختلف به المؤتلفون.

وفى كتاب الحجاج يخبره بقوة ابن الأشعث: بضَعْفك قوىَ، وبُخرقك طلع. ووقَّع فى كتاب ابن الأشعث:

فمال بالُ مَن أسعى لأجبر عظْمَه حِفاظاً وينْوى من سفاهته كسرى؟

ووقَّع أيضاً فى كتاب:

كيف يرجون سِقاطى بعدما شَمِل الرأسَ مشيب وصَلعْ

الوليد بن عبد الملك[2]

كتب إليه الحجاج لما بلغه أنه خَرِق فيما خلَّف له عبد الملك، ينكر ذلك عليه ويعرّفه أنه على غير صواب، فوقع فى كتابه: لأجْمَعنّ المال جمع من يعيش أبدا، ولأفرِّقنَّه تفريق من يموت غدا.

ووقع إلى عمر بن عبد العزيز، قد رأب الله بك الداء، وأوذم بك السِّقاء.

سليمان بن عبد الملك

كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان يتهدّده بالخلع، فوقَّع فى كتابه:

---

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٥٨.

(٢) ذاته ج ٤ ص ٢٥٨.

زعَـم الفـرزدق أنْ سـيقتل مـربعاً أبـشر بطـول سـلامةٍ يـا مـربَعُ

ووقَّع فى كتابه أيضاً: العاقبة للمتقين.

وإلى قتيبة أيضاً جواب وعبده: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً.

عمر بن عبد العزيز[1]

كتب بعض العمال إليه يستأذنه فى مرمّة مدينته، فوقَّع أسفل كتابه: ابنها بالعدل ونقِّ طُرقُها من الظلم.

وإلى بعض عماله فى مثل ذلك: حصّنها ونفْسَك بتقوى الله. وإلى رجل ولاه الصدقات، وكان دميما، فعدل وأحسن: ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا.

وكتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها، فوقع له: أرضَ لهم ما ترضى لنفسك، وخذ بجرائمهم بعد ذلك.

والى عدى بن أرطأة فى أمر عاتبه عليه: إن آخر آية أنزلت "واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله".

والى عامله على الكوفة ـ وكتب إليه أنه فعل فى أمرٍ كما فعل عمر بن الخطاب ـ: "أولئك الذين هَدى اللهُ فبهداهم اقتده".

والى الوليد بن عبد الملك ـ وعمرُ عامله على المدينة ـ فوقع فى كتابه: الله أعلم أنك لست أول خليفة تموت.

وأتاه كتاب عدّى يخبره بسوء طاعة أهل الكوفة، فوقع فى كتابه: لا تَطلب طاعة من خذل عليًّا، وكان إماماً مرضياً ـ وإلى عامله بالمدينة وسأله أن يُعطيه موضعاً يبنيه، فوقع: كن من الموت على حذر. وفى قصة متظلم: العدل أمامك. وفى رقعة

---

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٥٩.

محبوس: تُبْ تُطلَق. وفى رقعة رجل قَتل: كتاب الله بينى وبينك. وفى رقعة متنصّح: لو ذكرت الموت شغلك عن نصيحتك. وفى رقعة رجل شكا أهل بيته: أنتما فى الحق سيّان. وفى رقعة امرأة حُبس زوجُها: الحق حَبسه وفى رقعة رجل تظلم من ابنه: إن لم أنْصفك منه فأنا ظلمتُك.

يزيد بن عبد الملك[1]

وقع إلى صاحب خراسان: لا يغرنّك حسنُ رأى، فإنما تفسده عثرة، وإلى صاحب المدينة: عثرت فاستقِل.

وفى قصة متظلم: "سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" وفى قصة متظلم شكا بعض أهل بيته: ما كان عليك لو صفحت عنه واستوصلتنى.

هشام بن عبد الملك[2]

فى قصة متظلم: أتاك الغوث إن كنت صادقاً، وحلَّ بك النكال إن كنت كاذبا؛ فتقدم أو تأخر. وفى قصة قوم شكوا أميرهم: إن صح ما ادعيتم عليه عزلناه وعاقبناه ـ وإلى صاحب خراسان حين أمره بمحاربة الترك: احذر ليالى البيات. وإلى صاحب المدينة وكتب يخبره بوثوب أبناء الأنصار: احفظ فيهم رسول الله ـ ﷺ ـ وهَبْهم له. وقَّع فى رقعة محبوس لزمه الحدّ: تدل بحدِّك الكتابُ. ووقَّع فى قصة رجل شكا إليه الحاجة، وكثرةَ العيال، وذكر أن له حرمة: لعيالِك فى بيت مال المسلمين سهم، ولك بحرمتك منَّا مثْلاه. وإلى عامله على العراق فى أمر الخوارج: ضَعْ سيفك فى كلاب النار، وتقرَّبْ إلى الله بقتل الكفار. وإلى جماعة يشكون تعدى عاملهم عليهم لنفوضكم فى خصمكم دونكم.

وفى كتاب عامله يخبره فيه بقلة الأمطار فى بلده: مُرْهم بالاستغفار وإلى سهل بن سيار: خَفِ الله وإمامك، فإنه يأخذك عند أول زكة.

---

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٦٠.

(٢) ذاته.

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وقَّع إلى مروان (بن محمد): أراك تُقدِّم رِجْلاً، وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيّهما شئت.

وإلى صاحب خراسان فى المسوّدة: نجم أمر أنت عنه نائم وما أراك منه أو منّى بسالم.

مروان بن محمد[1]

كتب إلى نصر بن سيار فى أمر أبى مسلم: تحوُّل الظاهر يدل على ضعف الباطن، والله المستعان.

ووقَّع إلى ابن هبيرة أمير خراسان: الأمر مضطرب، وأنت نائم، وأنا ساهر:

وإلى هوثرة بن سهيل حين وجهه إلى قحطبة: كن من بيات المارقة على حذر.

ووقَّع حين أتاه غَرَقُ قحطبة وانهزام ابن هبيرة: هذا والله الإدبار، وإلا فمن رأى ميتاً هزم حيًّا؟

وفى جواب أبيات نصر بن سيار إذا كتب إليه: أرى خَلف الرمَاد وميض جمرٍ. ويوشك أن يكون له ضِرام.

الحاضر يرى مالا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول.

فكتب نصر: الثؤول قد امتدت أعضاؤه، وعظمت نكايته ـ فوقَّع إليه: يداك أوكَتا وفوك نفخ.

---

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٦١.